المرأة والحرب .. بحث انثروبولوجي في مدينة بغداد

م.م ياسمين اسام عبد الوهاب جامعة بغداد /كلية الآداب

yasmin.asam1101a@coart.uobaghdad.edu.iq

الملخص

تناول هذا البحث دراسة أنثروبولوجية ميدانية لمكانة ودور المرأة في مدينة بغداد في ظل الصراعات والحروب المتلاحقة، متخذاً من شارع المغرب (منطقة نجيب باشا) ومنطقة الكسرة نطاقاً مكانيًا للدراسة. يهدف البحث إلى رصد التغير البنائي في أدوار المرأة، وكيف أعادت الحرب تشكيل هويتها من كائن محمي في المتخيل الثقافي إلى فاعل استراتيجي في مواجهة الموت والانهيار الاقتصادي. اعتمدت الدراسة على منهج المسح الأنثروبولوجي وأدوات المقابلة المعمقة والملاحظة والمخبرين لعينة قصدية مكونة من ٣٠ امرأة، تم اختيارهن لتمثيل التباين الطبقي والأجتماعي بين مركز القضاء وأحيائه الشعبية. توصل البحث إلى أن الحرب أدت إلى حالة من تأنيث البقاء، وتراجع السلطة الأبوية التقليدية لصالح الأمومية الاضطرارية، وبروز أنماط جديدة من الفعل الاجتماعي كـجيل تشرين الذي يسعى لانتزاع مكانة سياسية واجتماعية تتجاوز أطر التكيف التقليدية.

الكلمات المفتاحية: المرأة، الحرب

Abstract

This research presents an anthropological field study on the status and role of women in the city of Baghdad amidst successive conflicts and wars, focusing on Maghrib Street (Najib Pasha area) and Al-Kasrah area as the spatial scope of the study. The research aims to monitor the structural changes in women's roles and examine how war has reshaped their identity—shifting from a (protected entity) within the cultural imaginary to a (strategic actor) facing death and economic collapse.

The study employed an anthropological survey methodology, utilizing tools such as in-depth interviews, observation, and key informants for a purposive sample of 30 women. These participants were selected to represent the class and social variations between the district center and its popular neighborhoods. The findings indicate that war has led to the (feminization of

survival), a decline in traditional patriarchal authority in favor of (necessity-driven matriarchy), and the emergence of new patterns of social action, such as the (Tishreen generation), which seeks to seize a political and social status that transcends traditional adaptation frameworks.

Keywords: Women, War

١- مقدمة:

تُعد الحروب والصراعات المسلحة من أكثر الظواهر الاجتماعية تعقيداً، فهي ظواهر اجتماعية كلية تزلزل البنى التحتية للمجتمعات. وفي سياق مدينة بغداد، يكتسب موضوع الحرب أبعاداً أنثروبولوجية استثنائية؛ فهذه المدينة لم تشهد حرباً عابرة، بل عاشت سلسلة من الهزات العنيفة المتمثلة في الحروب المتعاقبة كحرب الخليج الاولى والثانية، ثم الحصار الاقتصادي الطويل، وصولاً إلى التحولات الهيكلية بعد عام ٢٠٠٣ وما رافقها من عنف طائفي وإرهاب.

إن الحرب في بغداد لم تكن مجرد أحداث عسكرية عابرة، أو مُعولاً للهدم المادي فحسب، بل كانت عملية إعادة تشكيل الاطر الاجتماعية التي طالت أعمق روابط المجتمع، وهي الأسرة. وأعادت صياغة العلاقات والتراتبيات. وفي قلب هذا التحول، تقف المرأة البغدادية كعنصر فاعل وقوي. فبينما كانت السرديات التقليدية تحصر دور المرأة في الحروب كضحية أو كائن سلبي بانتظار الحماية، يكشف الواقع الأنثروبولوجي لمدينة بغداد عن صورة مغايرة تماماً. لقد أدت الحرب إلى ما يمكن تسميته بـخلخلة البنية الأبوية؛ حيث أجبر غياب الرجل (بسبب القتل، أو الاعتقال، أو الاختطاف، أوالتهجير) المرأة على الخروج من المجال الخاص (البيت) إلى المجال العام لتولي مسؤوليات القيادة، والتدبير، والإعالة. إن الحرب وفي قلب هذا المشهد، برزت المرأة البغدادية ليس كضحية سلبية أو متلقية للصدمات فحسب، بل كفاعل أساسي وركيزة بنائية حافظت على تماسك النسق الاجتماعي من الانهيار الكلي. لقد فرضت الحرب على المرأة واقعاً يتطلب استجابات تكيفية سريعة، مما أدى إلى خلخلة التقسيم التقليدي للأدوار بين الجنسين. يواجه المجتمع العراقي، وبغداد على وجه الخصوص، سلسلة من التحولات البنيوية العميقة التي فرضتها عقود من الحروب والنزاعات المسلحة. ولم تكن هذه الحروب مجرد أحداث سياسية أو عسكرية عابرة، بل كانت قوى تفكيكية أعادت صياغة الأدوار الاجتماعية داخل النسق الأسري والحضري. ومن هنا، يسعى هذا البحث إلى تقصي تجربة المرأة البغدادية، ليس كضحية سلبية للنزاع، بل كفاعل استراتيجي أعاد ابتكار آليات البقاء في ظل انهيار الأطر التقليدية.

وقد تكون البحث من فصلين : الفصل الأول الجانب النظري، التصور العام والمفاهيم الاساسية والابعاد الجوهرية المؤثرة على المرأة. أما الفصل الثاني الجانب الميداني، ويتضمن الخصائص الايكولوجية والاجتماعية لمنطقتي (نجيب باشا و الكسرة) ، اضافة الى عرض وتحليل عينات البحث الميداني ، وخاتمة وتوصيات.

٢- الاطار المنهجي للبحث:

الفصل الاول: الجانب النظري (إطار البحث)

١. موضوع البحث

يتمحور موضوع البحث الحالي حول تفكيك العلاقة الجدلية بين المرأة وفضاء الحرب في سياق مدينة بغداد، بوصفها حاضنة حضرية شهدت تحولات جيوسياسية واجتماعية حادة منذ عقود. لا ينظر هذا البحث إلى الحرب كحدث عسكري عابر، بل كقوة سوسيولوجية بنيوية أعادت تشكيل الأدوار الاجتماعية والثقافية داخل النسق البغدادي (الاسري).

ويمكن تقسيم موضوع البحث إلى عدة أبعاد تحليلية موسعة:

أ. إشكالية التحول من المحمي إلى الفاعل:

يتناول البحث دراسة التغير في الهوية الأنثروبولوجية للمرأة؛ ففي المتخيل الثقافي والاجتماعي التقليدي لمدينة بغداد، كانت المرأة تُعرف بوصفها كائناً يحتاج للحماية ضمن إطار الأسرة الأبوية. إلا أن الحرب، وما رافقها من غياب قسري للرجل، فرضت واقعاً جديداً عليها. لذا، يدرس البحث كيف استجابت المرأة لهذا الفراغ السلطوي وكيف تحولت إلى فاعل استراتيجي يمتلك زمام المبادرة في إدارة شؤون البقاء اليومي. (الوردي، ١٩٦٥، ص ٧).

ب. تأثير الحروب على الأدوار الجندرية :

يتناول غدنز كيف تعيد الحروب تشكيل مسؤوليات المرأة، عندما تنشب الحروب، تضطر النساء في الغالب إلى تولي مسؤوليات الرجال الذين يذهبون إلى الجبهة. هذا الانتقال القسري للمرأة إلى سوق العمل وإدارة الشؤون العامة يخلخل المفاهيم التقليدية حول (العمل المنزلي) للمرأة، ويخلق واقعاً اجتماعياً جديداً يفرض نفسه حتى بعد انتهاء النزاع. (غدنز، ٢٠٠٥، ص ٢٠٦).

ج. المرأة والفقر الناتج عن النزاعات:

يشير غيدنز ضمن حديثه عن تأنيث الفقر إلى أن الحروب هي أحد الأسباب الرئيسية، أي إن النساء والأطفال يمثلون الغالبية العظمى من ضحايا الفقر الناتج عن الحروب والنزاعات الأهلية. ففقدان المعيل الذكر والنزوح القسري يضعان المرأة في مواجهة مباشرة مع الحرمان الاقتصادي والاجتماعي.(غدنز، ص٣٧٨ مصدر سابق)

لذلك اقتحمت النساء قطاعات العمل غير الرسمية (مثل البسطات المنزلية، والخياطة، والتجارة المتنقلة، والكوافيره النسائية) لمواجهة الانهيار الاقتصادي الناتج عن الحصار والحروب، وما نتج عن ذلك من استقلال مالي أثر على موازين القوى داخل الأسرة.

د. الرمزية الثقافية وأنثروبولوجيا الذاكرة:

يتوسع موضوع البحث في دراسة الأنساق الرمزية التي أنتجتها الحرب. فالمرأة البغدادية أصبحت حارسة للذاكرة وطقوس الفقد. يدرس البحث كيف تم توظيف الرموز الجسدية (مثل

ارتداء الأسود الدائم) والرموز المكانية (مثل تزيين البيوت بصور المفقودين) كأدوات للمقاومة الثقافية وإثبات الوجود في بيئة تتسم بالعنف واللايقين (الحيدري، ١٩٩٩، ص ٣٦٤).

ذ. شبكات التضامن والنسق الاجتماعي البديل:

يبحث الموضوع في كيفية بناء المرأة لـرأسمال اجتماعي بديل عن الدولة أو المؤسسات الرسمية المتعثرة. فمن خلال شبكات الجيرة والتكافل النسوي، استطاعت النساء في أحياء مثل نجيب باشا والكسرة خلق نظام حماية متبادل (تبادل المؤن،و متابعة الأطفال،و نقل الأخبار الأمنية)، مما يشكل موضوعاً غنياً للدراسة حول قدرة المجتمعات المحلية على التنظيم الذاتي في أوقات الكوارث. وتمثل المرأة حجر الزاوية في استقرار الكيان الأسري، ومن خلال دورها في التنشئة الاجتماعية، تساهم في نقل القيم والمعتقدات من جيل إلى جيل، مما يجعلها الفاعل الأساسي في صيانة الهوية الثقافية للمجتمع في مواجهة التغيرات المتسارعة.(المنصوري، ٢٠١٥،ص٩٢)

إن موضوع البحث بهذا التفصيل لا يقف عند رصد النتائج، بل يغوص في العمليات التكيفية التي جعلت من البقاء في مدينة مثل بغداد ممكناً. إنها دراسة في فلسفة الصمود التي قادتها المرأة، وكيف أدت هذه الاستجابات الاضطرارية إلى تغيرات طويلة الأمد في بنية المجتمع العراقي قد لا تزول بزوال الحرب نفسها.

يسعى البحث للإجابة على تساؤلات مركزية وهي كيف أعادت الحرب تشكيل هوية المرأة البغدادية؟ وكيف تحولت من كائن محمي في المتخيل الثقافي إلى قائد لمواجهة الموت والفقر؟. ومن خلال الاستناد إلى النظرية البنائية الوظيفية ونظرية الصراع الاجتماعي، سنحلل علاقات القوة الجديدة والتحولات الوظيفية التي طرأت على النسق الاجتماعي البغدادي.

٢. أهداف البحث

أ. تحليل آليات التكيف التي اتبعتها المرأة البغدادية.

ب. فهم التحول في تراتبية السلطة داخل الأسرة البغدادية نتيجة غياب الرجل (الموت، السجن، أو الهجرة).

ج. رصد الأثر الثقافي للحرب على الطقوس اليومية للمرأة.

٣. أهمية البحث

تستمد الدراسة أهميتها من ندرة الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية التي تركز على المنظور النسوي للحرب في بيئة حضرية معقدة مثل بغداد، بعيداً عن السرديات السياسية الكبرى. ويسلط الضوء على الاستراتيجيات الصامتة التي تتبعها المرأة البغدادية لإدارة الأزمات، مما يساعد في فهم كيفية صمود النسيج الاجتماعي العراقي رغم التفكك المؤسساتي.

٤.منهجية البحث:

اعتمدت الدراسة على منهج المسح الأنثروبولوجي، مستخدمةً أدوات المقابلة المعمقة والملاحظة والمخبرين لعينة قصدية مكونة من ٣٠ امرأة، وذلك للوصول إلى فهم كيفي وتفسيري عميق للتحولات التي طرأت على الأمومية والهوية الجندرية في مجتمع يعيش حالة طوارئ مستمرة. إضافة الى ربط الدراسة بالنظرية البنائية الوظيفية والنظرية الصراعية.

النظرية البنائية الوظيفية: يرى بارسونز أن المجتمع يميل للتوازن،حيث تعمل المؤسسات والافراد معاً لتحقيق هذا التوازن. أي عند حدوث صدمة كالحرب، يضطر النسق لإعادة توزيع الأدوار. وهنا نرى المرأة تمتص أدوار الرجل الغائب للحفاظ على استقرار الأسرة. وأهم ركائز نظرية بارسونزعلى (الفعل الاجتماعي، والنسق الاجتماعي) وطور بارسونز نموذجاً شاملاً يجب ان تلبيه النظم الاجتماعية للبقاء والاستمرار وهي (التكيف، وتحقيق الهدف، والتكامل، والحفاظ على النمط). (كريم حمزة، ٢٠١٤، ص٢٢٠-٢٢١)

النظرية الصراعية: الصراع في مفهوم رالف داهرندوف، اذ يحدث الصراع نتيجة لغياب الانسجام والتوازن والنظام في محيط اجتماعي معين. ويحدث ايضاً نتيجة لوجود حالات من عدم الرضا حول الموارد المادية مثل السلطة والدخل والملكية أو كليهما معاً. أما المحيط الاجتماعي المعني بالصراع فيشمل كل الجماعات سواء كانت صغيرة أو كبيرة. لذلك نرى كيف تقود الحرب إلى خلخلة موازين القوى التقليدية، مما يسمح للمرأة بانتزاع مساحات جديدة في المجال العام والقرار الأسري.(نينك فوجي،٢٠١٧،ص١٣)

ثانيا: تحديد المصطلحات والمفاهيم

١. مفهوم المرأة لغة:

المرأة: أنثى الرّجُل. جمع المرأة نساء، نسوة، نسوان من غير لفظها. إمرأةٌ عند التّنكير. (المعاني)

المرأة اصطلاحاً:

هي كائن طبيعي مطلق الدلالة، وتام الوجود، من حيث الاصل ولكنها تحولت بفعل الحضارة والتاريخ الى كائن ثقافي جرى استلابها وبخس حقوقها لتكون ذات دلالة محددة ونمطية. (الغذّامي، ١٩٩٦،ص ١٦)

التعريف الاجرائي للمرأة:

هي المركز البنائي المرن للأسرة البغدادية, وهي الفاعل الأجتماعي الذي مرّ بتحولات عديدة. إذ تحولت من خانة المرأة الذي تنتظر الحماية في المتخيل الثقافي إلى فاعل استراتيجي يتصدى لمهام الحماية والتدبير في ظل غياب المعيل (الرجل).

٢. الحرب لغة:

حَرب: مصدر حَرَبَ. الحربُ، الويل والهلاك. (المعاني، مصدر سابق)

الحرب اصطلاحاً:

تحدد في سياق الصراع المسلح بين الشعوب في مختلف المجتمعات والتي توجه من قبل حكوماتهم. الحرب قديمة قدم الأنسانية، ولكن فهمها أصبح قضية ملحة ما دمنا نملك الوسائل التكنولوجية لنحطم انفسنا. وبما أن العديد من الحيوانات عدوانية بصورة طبيعية، فإن البحث العلمي لايوفر دليلاً على أن البشر يؤججون الحرب بصورة حتمية في ظل ظروف معينة. وكما يلاحظ بعض علماء الاجتماع، فإن الحكومات في كل أنحاء العالم تجبر شعوبها على التعبئة من أجل الحرب.(عبد الحسين، ٢٠١٢،ص٢٣٢)

التعريف الاجرائي للحرب:

أنها مُحفز التغيير البنيوي الاضطراري، إذ انها ليست مجرد صراع عسكري بل عملية إعادة تشكيل اجتماعية تتميز بإضعاف سلطة الرجل التقليدية نتيجة للغياب القسري(القتل، الاعتقال، أو التهجير)، مما خلق فراغاً سلطوياً ملأته المرأة.

ثالثا: الابعاد الجوهرية المؤثرة على المرأة

١. البعد الثقافي والرمزي:

يرى إبراهيم الحيدري أن الثقافة في العراق هي ثقافة حزينة نتيجة الصدمات المتكررة. المرأة في بغداد أعادت صياغة الرموز؛ فاللون الأسود لم يعد تعبيراً عن الموت فقط، بل أصبح درعاً اجتماعياً يمنحها حرية الحركة والوقار في فضاء يهيمن عليه السلاح. كما رصد البحث أن الأغاني الشعبية التي ترددها النساء في الكسرة تعمل كـعلاج جمعي للصدمات (الحيدري، ١٩٩٩، ص١٥٨- ١٦٠مصدر سابق).

٢. البعد الاجتماعي وبنية السلطة :

كثير من الرجال العظماء لم يكن في إمكانهم أن يصبحوا عظماء لولا أنهم رزقوا بأمهات عظيمات خُضن الكثير من معارك الحياة حتى تمكنوا من الوقوف على أقدامهم . يربط بكّار بين عظمة الرجال وعظمة أمهاتهم اللواتي خضن معارك الحياة. (بكّار، ٢٠١١،ص ١٥). في حالات الحرب، تصبح المرأة هي المقاتل الخفي التي تحمي الأبناء نفسياً وتربوياً لتضمن استمرار المجتمع رغم الدمار.

٣. البعد الاقتصادي وتأنيث الإعالة:

أصبحت المرأة العراقية هي البديل الفعلي للبنية التحتية والخدمات العامة التي دمرتها الحرب؛ حيث اضطرت النساء للعودة إلى أساليب العيش التقليدية ما قبل الصناعية (مثل جمع الحطب للخبز في التنور التقليدي المصنوع من الطين) وذلك لتوفير النقود لشراء الحاجات الاساسية لأطفالهن،إذ كان الهم الأكبر للمرأة هو كيفية إطعام أسرتها في ظل الارتفاع الجنوني للأسعار (وصلت لـ ٤٠ ضعفاً) في بيئة حديثة أصلاً ولكنها معطلة. (Cainkar,1993)

هذا الدخول القسري لسوق العمل غير الرسمي منحها استقلالاً مادياً لم تكن تمتلكه في زمن السلم، مما غيّر نظرة المجتمع لدورها الاقتصادي

٤.البعد السياسي والوعي السياسي:

تطرح الكاتبة فكرة مركزية مفادها أن الحروب هي التي علمت المجتمعات السياسة؛ حيث تذكر أن الحرب الأمريكية البريطانية على العراق لم تكن مجرد حدث عسكري، بل كانت درساً قاسياً تعلم منه الجميع كيف يحللون سياسات الدول ومنحنياتها. توضح أن الانخراط في السياسة لم يعد ترفاً فكرياً، بل أصبح ضرورة يفرضها الواقع المشحون بالشظايا، حيث وجدت المرأة نفسها مضطرة لفهم اللعبة السياسية. التي تسببت في تلك الحروب وأثرت على النساء بشكل خاص.(الخثلان،٢٠٠٧،ص٧).

٥. البعد التعليمي والمهارات اليدوية:

تشير دراسة (العلي وبرات) إلى أن الحرب في العراق لم تكن مجرد صراع عسكري، بل أدت إلى خلق مناخ رعب أعاد صياغة علاقة المرأة بالمدينة. فرغم أن العنف المسلح استهدف الرجال بشكل مباشر ومكثف، إلا أن تداعياته غير المباشرة كانت أعمق أثراً على النساء؛ حيث تسبب الخيار القسري بين انعدام الأمن والانسحاب الاجتماعي في تراجع مشاركة المرأة البغدادية في التعليم والذي هو حق من حقوقها المشروعة، مما أدى إلى فقدانها لمكاسبها في الحيز العام لصالح انحسارها في الحيز الخاص.(Al-Ali and Pratt, 2006)

ليست المرأة بالخَلْقِ الضعيف النفس، فإن من احتمل ما احتملته في ظلمات التاريخ، من حروب وانتهاكات لحقوقها، والقيام بدورها الامومي والتزامها الخلقي والاخلاقي امام أولادها وهي راضية مطمئنة، لا تكون ضعيفة أبداً، فإن من وكله الله بابتناء الكون، وإنشاء الأمم لا يكون ضعيفاً، ألا إنما المرأة دعامة الكون، لا يزال ناهضاً مكيناً ما نهضت به. (بن ابراهيم،١٤٢٨،ص١١)

أن الحروب أدت إلى تسرب العديد من الفتيات من التعليم ، ولكن البحث الميداني رصد نشوء تعليم بديل. النساء البغداديات بدأن في تعلم مهارات تقنية (حياكة، خياطة ،منتجات غذائية منزلية، إسعافات أولية مثل زرق الابر وتضميد الجروح وتجميل النساء الكوافيره) كوسيلة لمواجهة حالات الطوارئ. هذا التعليم الذي أعتمد على المهارات أصبح بديلاً عن الشهادات الأكاديمية المتعطلة. وتحولت هذه المهارات الى مشاريع صغيرة وناجحة ، لكونها تتيح للنساء العمل ضمن مناطق سكناهن.

الفصل الثاني: الجانب الميداني

أولاً: الخصائص الايكولوجية والاجتماعية لمنطقتي الدراسة:

١. لمحة تاريخية لقضاء الأعظمية

تقع الأعظمية في الجانب الشرقي من نهر دجلة، ويحدها من الشمال منطقة الصليخ ومن الجنوب منطقة الوزيرية ومن الغرب نهر دجلة الذي يربطها بالكاظمية عبر جسر الائمة. تعد الاعظمية من المناطق التاريخية والدينية البارزة في بغداد.(البياتي ،٢٠٢٤،ص١٢٠-١٢١)

٢. شارع المغرب (منطقة نجيب باشا)

ويضم قضاء الأعظمية منطقتي نجيب باشا والكسرة؛ هاتين المنطقتين محور بحثنا هذا. تقع منطقة نجيب باشا في شارع المغرب، تحدها من الشمال مركز قضاء الأعظمية والمناطق المحيطة بساحة عنتر ومن الغرب منطقة الكسرة ومن الشرق منطقة الوزيرية.

وسميت نجيب باشا، بأسم محمد نجيب باشا الذي تملك أرضها في اثناء ولايته على بغداد سنة ١٨٤٢-١٨٤٩م، وأليه نسبة المنطقة فيما بعد. (كُتّاب العراق، ٢٠٠٧)

تتميز هذه المنطقة بموقعها الاستراتيجي في جانب الرصافة،حيث تمتاز بمنازلها الضخمة والمساحات الواسعة، وتشتهر المنطقة بكثرة العيادات الطبية والمختبرات على طول شارع المغرب.

٢. منطقة الكسرة

أما منطقة الكسرة، فتقع ايضاً في جانب الرصافة؛ اذ يحدها من الشرق منطقة نجيب باشا ومن الغرب نهر دجلة ومن الشمال مركز منطقة الأعظمية ومن الجنوب منطقة باب المعظم. وتعتبر الكسرة حلقة الوصل بين الأعظمية وبين مركز بغداد القديم في باب المعظم.

وجاءت تسمية الكسرة، نسبة الى الكسرة التي حدثت في سدتها من جهة النهر بسبب فيضان نهر دجلة سنة ١٩٢٥. (كُتّاب العراق، مصدر سابق)

تتميز الكسرة ببيبوتها التي يمتزج فيها البناء التقليدي، وشوارعها الضيقة، مما يعطيها طابعاً شعبياً.

تمثل منطقتي الكسرة وشارع المغرب الامتداد الطبيعي لروح التعايش في الأعظمية. من خلال دراستنا وجدنا التكافل الاجتماعي، الذي يُظهر التضامن بوضوح في أوقات الأزمات، حيث يُنظم السكان حملات تبرع ومبادرات لدعم المحتاجين، مما يعزز التلاحم بين هذه الأحياء.

اولا:عرض وتحليل الحالات

لتعميق الفهم الأنثروبولوجي للتحولات التي طرأت على المرأة البغدادية، سيتم عرض ثلاث حالات دراسية تمثل التنوع الطبقي والاجتماعي للعينة:

الحالة الأولى: (س. أ) – شارع المغرب (منطقة نجيب باشا)

الخلفية الاجتماعية: امرأة تبلغ من العمر ٥٢ عاماً، حاصلة على شهادة بكالوريوس، زوجة لمهندس فُقد أثره في أحداث عام ٢٠٠٦.

تحليل الحالة (أنثروبولوجيا الصمود الطبقي): تمثل هذه الحالة طبقة بغداد المتوسطة التي واجهت "صدمة الانحدار". تذكر (س. أ) أنها اضطرت لبيع مصوغاتها الذهبية لتمويل دراسة أبنائها في الجامعة، لكن التحول الأهم كان في إدارة المنزل. إذ قامت بتحويل الطابق العلوي من منزلها الفاخر إلى شقق صغيرة للإيجار، لضمان دخل ثابت.

الاستنتاج: تكشف هذه الحالة عن (براغماتية البقاء)؛ حيث تخلت المرأة عن البرستيج الطبقي لصالح الدور الإعالي، مما أدى إلى كسر عزلتها الاجتماعية وتحويلها إلى مديرة عقارية صغيرة في بيئة ذكورية.

الحالة الثانية: (م. ن) – شارع المغرب (منطقة نجيب باشا)

الخلفية الاجتماعية: عزباء، ٣٤ عاماً، تعيش مع والدتها المسنة وشقيقتها، تعمل في القطاع الخاص.

تحليل الحالة (أنثروبولوجيا المكان والشبكات): تعرض منزل (م. ن) لأضرار جسيمة نتيجة تفجير إرهابي قريب. تصف (م. ن) كيف أعادت تغيير حياتها من خلال شبكة الجيرة. تقول: في اللحظات التي انهار فيها الأمن، كانت جاراتي هنّ نظام الإنذار المبكر. قامت (م. ن) بتدريب نفسها على مهارات الإسعافات الأولية وصيانة المولدات الكهربائية المنزلية، وهي مهام كانت تُعتبر (ذكورية) بامتياز في السابق.

الاستنتاج: توضح هذه الحالة تأنيث المهارات التقنية؛ حيث فرضت الحرب على المرأة العزباء في بغداد أن تكون هي (رجل البيت) تقنياً وأمنياً، مما خلق نوعاً من الاستقلال الذاتي العالي .

الحالة الثالثة: (أم كرار) - منطقة الكسرة

الخلفية الاجتماعية: أرملة، ٤١ عاماً، أم لخمسة أطفال، تسكن في حي شعبي، زوجها قُتل في تفجير سيارة مفخخة في منطقة الكسرة.

تحليل الحالة (تأنيث الفقر واقتصاديات الشارع): تمثل (أم كرار) الشريحة الأكثر تضرراً. تحول منزلها الصغير إلى مشغل خياطة وحياكة. تقول: لم تكن الحرب تقتلنا بالرصاص فقط، بل بالجوع. الخياطة كانت ملجئي الصغير الذي كنت أهرب اليه من الواقع المرير. تشير الملاحظة الميدانية إلى أن (أم كرار) تقود الآن (شبكة تضامن نسوية) في منطقتها، حيث تجمع الأرامل لتبادل الطلبيات وتوفير الحماية المتبادلة أثناء التنقل للأسواق.

الاستنتاج: تعكس هذه الحالة ظاهرة القيادة الاضطرارية؛ فالفقر والترمل الناتج عن الحرب حولا المرأة من كائن منزلي إلى منتجة اقتصادية محلية، مما ساهم في خلق نسق اجتماعي بديل يحمي العائلات التي فقدت معيلها.

تعقيب تحليلي على الحالات:

من خلال استعراض هذه الحالات الثلاث، نجد أن الحرب في بغداد لم تكن تجربة موحدة، بل اختلفت أدوات المواجهة باختلاف الطبقة (نجيب باشا والكسرة). ومع ذلك، تشترك جميع الحالات في الانزياح الوظيفي؛ أي تخلي المرأة عن أدوارها التقليدية لصالح أدوار مركبة (منتجة، حامية، ومدبرة).

هذا التحول الميداني يعزز فرضية البحث بأن المرأة البغدادية أصبحت هي المتن الاجتماعي، بينما تحولت السلطة الأبوية التقليدية إلى هامش يظهر فقط في الخطابات الرمزية، أما الواقع العملي فهو واقع أنثوي بامتياز.

ثانيا: التحليل الميداني المقارن وفق أنماط الصمود

حيث تم تصنيف المبحوثات إلى ثلاثة أنماط بنيوية:

النمط الأول: الريادة الاقتصاديّة والتمكين الاضطراري (١١ حالة)

الربط النظري: ينسجم هذا النمط مع (النظرية البنائية الوظيفية) لتالكوت بارسونز. فحينما حدث خلل وظيفي في الأسرة البغدادية بسبب غياب الرجل، قامت المرأة بعملية تعويض بنيوي.

التحليل الميداني: رصدت الدراسة في منطقة الكسرة أن النساء الـ ١١ في هذا النمط انتقلن من الاستهلاك إلى الإنتاج. إحدى المبحوثات (أرملة، ٤٨ عاماً) ذكرت: لم أكن أعرف كيف أدفع فاتورة الكهرباء، واليوم أدير محل لتجميل السيدات (كوافيره).

النتيجة: أن الحرب عملت كمحفز اضطراري للتغير الاجتماعي؛ فبعيداً عن أبعاد الدمار المادي، أدت عصرنة الحرب القسرية إلى تمكين المرأة اقتصادياً، ومنحها دوراً ريادياً في إدارة الاستهلاك وصناعة القرار المالي.

النمط الثاني: أنثروبولوجيا الذاكرة والسيادة الرمزية (٩ حالات)

الربط النظري: يتمفصل هذا النمط معرفياً مع أطروحات السوسيولوجية ماري دوغلاس حول الرمزية والحدود الثقافية؛ إذ توظف المرأة رأسمالها الرمزي ، المتجسد في تمثلات الأمومة، وطقوس الحداد، ومظاهر الحزن ، كآلية لفرض سيادتها على الفضائين المنزلي والعام. وتعمل هذه الرموز كأدوات لإعادة إنتاج السلطة المعنوية في سياقات الاضطراب الاجتماعي.

التحليل الميداني: كشفت الدراسة الميدانية في منطقتي (نجيب باشا والكسرة) أن النساء في الفئة العمرية (٥٠-٦٥ عاماً) يضطلعن بدور حارسات النسق القيمي. فقد تجاوزت العباءة السوداء والممارسات الجنائزية دلالتها التقليدية، لتتحول إلى أدوات سياسية صامتة وفعل مقاوم رمزي للمطالبة بحقوق المفقودين وتثبيت الذاكرة الجماعية.

النتيجة: وتتفق هذه النتيجة مع رؤية (دوغلاس) حول دور الطقوس في صياغة النظام الاجتماعي ومنع التحلل البنيوي. ففي الوقت الذي فرضت فيه الحرب حالة من "الأنومي" (Anomie) واللامعيارية، شكلت الممارسات الروحية والطقوسية التي أدارتها النساء أداة فاعلة لإعادة ترسيم الحدود الاجتماعية والقيمية، محولةً الفوضى الوجودية إلى نظام رمزي متماسك يحمي البنية المجتمعية من الانهيار الكامل.

النمط الثالث: جيل تشرين والفعل الاستراتيجي (٧ حالات)

الربط النظري: يفسر هذا النمط عبر نظرية الصراع الاجتماعي لداهرندروف. فالشابات البغداديات دخلن في صراع مع البنية الأبوية وبنية الحرب معاً لانتزاع هوية جديدة.

التحليل الميداني: المبحوثات الشابات في نجيب باشا والكسرة أظهرن وعياً بحقوق المواطنة يتجاوز دور الضحية. إحدى المبحوثات (طالبة، ٢٢ عاماً) قالت: الحرب علمتنا أن الحياة قصيرة، لذا لن ننتظر أحداً ليعطينا حقوقنا.

النتيجة: ١.تحويل التروما (الصدمة) إلى (طاقة).عادةً، الصدمات الناتجة عن الحروب تؤدي للانكسار أو الخوف. لكن القفزة التي حدثت هنا هي أن هذا الجيل حوّل الألم النفسي إلى دافع للمطالبة بالحقوق. الصدمة لم تعد عائقاً، بل أصبحت وقوداً للاحتجاج.

٢. تجاوز دور (الضحية). ان الأنثروبولوجيا التقليدية قد تدرس النساء في مناطق النزاع كضحايا. القفزة هنا هي تمرد المبحوثات (في نجيب باشا والكسرة) على هذا الوصف، وقولهن: لن ننتظر أحداً ليعطينا حقوقنا. هذا انتقال من العجز إلى الفعل.

٣. انتزاع (الهوية). القفزة تكمن في أن هؤلاء الشابات لم يعدن ينتظرن المجتمع ليحدد لهن أدوارهن، بل قمن بـإنتزاع هوية جديدة قوامها الوعي بحقوق المواطنة، وهذا تغيير بنيوي في الشخصية البغدادية المعاصرة.

الخاتمة والتوصيات:

إن هذا البحث وضح أن مدينة بغداد لم تصمد بفضل ترسانتها العسكرية، بل بفضل ترسانتها الأنثوية. لقد أثبتت المرأة البغدادية أنها حارسة البقاء ؛ فهي التي أدارت الأزمة الاقتصادية ببراعة، وهي التي أعادت تعريف الرموز الثقافية، وهي التي حافظت على تماسك الأسرة وسط أمواج العنف المتلاطمة.

إن التغيرات التي رصدها البحث في بنية السلطة والوعي الثقافي والتعليمي ليست تغيرات عابرة، بل هي تحولات بنيوية ستلقي بظلالها على مستقبل المجتمع العراقي لجيلين أو أكثر. إن البقاء في بغداد خلال العقود الماضية كان فعلاً أنثوياً بامتياز، مما يستدعي إعادة قراءة تاريخ المدينة المعاصر من منظور نسوي أنثروبولوجي. إذ تشترك المنطقتان في وجود رأس مال اجتماعي قوي، حيث خلقت النساء في نجيب باشا والكسرة أنظمة حماية متبادلة وتكافل نسوي (مثل تبادل المؤن ومتابعة الأطفال) لمواجهة التدهور الأمني.

ويوصي البحث بالآتي:

١. مؤسساتياً دعم الريادة الاقتصادية: ضرورة تبني سياسات حكومية لدعم المشاريع الصغيرة النسوية لضمان تحويل الاستقلال المالي القسري إلى استقرار اقتصادي مستدام.

٢. صحياً الدعم النفسي والاجتماعي: العمل على برامج التأهيل النفسي مع مراعاة الخصوصية الطبقية لأحياء بغداد، للتعامل مع تروما الفقد المتراكمة لدى النساء اللواتي تحملن عبء القيادة في ظروف الحرب.

٣. ثقافياً التوثيق الأنثروبولوجي: تشجيع الباحثين والباحثات على تدوين التاريخ الشفاهي النسوي لمدينة بغداد، وحفظ قصص الصمود كجزء من الهوية الوطنية العراقية.

٤. يوصي البحث بمراجعة المفهوم التقليدي لرب الأسرة والمعيل في التشريعات والقوانين المحلية، ليتماشى مع الواقع الذي فرض تأنيث الإعالة في بغداد.

٥. أكاديمياً استشراف الدراسات الفيزيقية: بما أن الأنثروبولوجيا علم متكامل، يوصي البحث بإجراء دراسات مستقبلية تربط بين الضغوط الاجتماعية (التي رصدها هذا البحث) وبين الآثار الحيوية والفسيولوجية على صحة المرأة العراقية، لتعميق فهمنا للآثار الجسدية بعيدة المدى للحروب.

المصادر

كتب

١.د. علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة العاني، بغداد/ العراق،١٩٦٥. ص٧.

٢. أنتوني غدنز،علم الاجتماع. ترجمة فايز الصياغ، الطبعة الاولى، المنظمة العربية للترجمة. بيروت/ لبنان، ٢٠٠٥، ص٢٠٦.

٣. إبراهيم الحيدري، تراجيديا كربلاء: سوسيولوجيا الخطاب الشيعي. الطبعة الاولى، دار الساقي، بيروت/ لبنان ١٩٩٩ ص ٣٦٤.

٤. محمد علي صالح المنصوري، الحقوق السياسية للمرأة في الشريعة الاسلامية والقانون الدولي، الطبعة الاولى، مركز صناعة الفكر للدراسات والابحاث، ٢٠١٥. ص٩٢.

٥.د. كريم محمد حمزة، نظريات علم الاجتماع، الطبعة الاولى، دار ومكتبة البصائر، بيروت/ لبنان، ٢٠١٥. ص ٢٢٠-٢٢١.

٦. عبدالله محمد الغذّامي، المرأة واللغة، الطبعة الاولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٦. ص ١٦.

٧. د. لاهاي عبد الحسين،مصطلحات ونصوص سوسيولوجية باللغتين العربية والانكليزية، الطبعة الاولى، دار ومكتبة البصائر، بيروت/ لبنان ٢٠١٢. ص ٢٣٢.

٨. د. عبد الكريم بكّار، الحياة الأسرية مقولات قصيرة في العلاقة بين الزوجين وتربية الأبناء، الطبعة الاولى، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة / مصر ٢٠١١. ص ١٥.

٩. سارة بنت محمد الخثلان، المرأة والسياسة، الطبعة الاولى، مكتبة العبيكان، الرياض/ السعودية ٢٠٠٧. ص٧.

١٠. خالد بن إبراهيم الصقعبي، المرأة الداعية بين الواقع والمأمول،الطبعة الاولى، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض/ السعودية ١٤٢٨ هجرية. ص١١.

١١. د. فارس البياتي، الكاظمية والأعظمية لؤلؤتان في قلب بغداد، الطبعة الاولى،٢٠٢٤. ص١٢٠-١٢١.

أبحاث

١٢. استوتك، نينك فوجي، (٢٠١٧). الصراع الاجتماعي لرلف دهرندروف في رواية "سنونوات كابول" لياسمينة حصراً. (دراسة اجتماعية ادبية)، قسم اللغة العربية وأدابها / كلية العلوم الانسانية / جامعة مولانا مالك ابراهيم الاسلامية الحكومية مالانج. ص١٣.

مصادر الكترونية

١٣.د. عبد السلام رؤوف، الاصول التاريخية لأسماء محلات بغداد ، مقالة في منبر الكاتب العراقي، كُتّاب العراق، ٢٠٠٧. Iraqi Writers.com

١٤.المعاني، www.almaany.com

مصادر أجنبية

15. Louis Cainkar, The gulf war, sanctions and the lives of Iraqi women, quarterly, spring 1993, vol. 15, No.2, p. 16,25,26.

16.Nadje Al-Ali and Nicola Pratt, 2006, Article title: Women in Iraq: Beyond the Rhetoric. University of Warwick ,UK. p. 6